أغراض التربية الأمريكية

ومثلها العليا

للدكتور تشارلس وطسن

رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة

ألقى المربى الجليل الدكتور تشارلس وطسن رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ٣١ مايو الماضى لمناسبة الحفلة السنوية لتوزيع الإجازات المدرسية محاضرة قيمة على طلاب هذه الجامعة ، شرح فيها الأغراض التى تسعى اليها التربية الأمريكية والمثل العليا التى تعمل على تحقيقها .

ولقد مهد المحاضر لمحاضرته بكلمة عن مغزى إنشاء المعاهد الأمريكية فى مختلف بلاد الشرق والغرب فقال :

"كثيرا ما دارت بخلدى هذه الفكرة : بم تجيب إذا سئلت عن الباعث على إنشاء الجامعة الأمريكية ؟ ولا يخفى أن هناك فى مصر معاهد تعليم يونانية وأخرى إيطالية ، وغيرها لجنسيات مختلفة . أقول إن هذه المعاهد قد أنشئت خصيصا لتعليم أبناء هذه الجنسيات ، وذلك على النقيض من معهدنا هذا الذى لم تبلغ فيه نسبة الطلبة الأمريكيين يوما ما نصفا فى المائة من مجموع الطلبة . إن إنشاء هذا المعهد والانفاق عليه يعبران عن مبدأين ، وهما إيمان أمريكا بمثلها العليا وما يعود على الانسانية بأسرها من هذه المثل ، وشعور أمريكا بمسئوليتها فى مشاركة الغير كل ما عاد على حياتها بالنفع والبركة .

على أن مصر ليست الوحيدة بين البلدان التى أنشئ بها معهد أميركى ، فلا بد أن يكون بين الحاضرين من هو على علم تام بالجامعة الأميركية فى بيروت ، وكلية (روبرت) فى استنبول . وأستطيع أن أنتقل بكم الى كلية باكين الطبية فى الصين التى ينفق عليها أولو الخير فى أمريكا مالا يقل عن ٢٥٠ ألف جنيه مصرى سنويا . وأستطيع أن أشير إلى ١٤ جامعة وكلية أخرى فى الصين ، و ١٦٣ مستشفى ، يبلغ عدد أسرتها ٨٣٨٤ ، وكلها ثمرة ذلك الشعور الإنسانى بمقاسمة الغير فى الخارج كل ما كان من نعمة لأمريكا وبركة فى الداخل .

ولقد ذكرت الصين من قبيل التمثيل ، لأن الأرقام فيها أشد استرعاء للانظار منها فى غيرها من البلدان ، غير أن الخدمات العلمية التى تؤديها أمريكا ، لها أمثلة عدة فى اليابان والبرازيل وبيرو والمكسيك ، وتتعداه إلى بلدان أخرى فى أوروبا كإيطاليا وفرنسا .

ولست فى حاجة إلى أن أؤكد لكم أن أمريكا لاتبغى من وراء هذا النشاط الخيرى أغراضا استعمارية ، توسيعا لممتلكاتها ، ولا ترمى إلى أهداف تجارية أو منافع اقتصادية .

كنت أبحث أخيرا عن صديقين فى تركيا ، أحدهما رئيس كلية روبرت ، وثانيهما مدير المستشفى الامريكى فى استنبول ، وكانا متغيبين عن محل عملهما .

فاتضح لى أن أحدهما سافر إلى أمريكا لجمع التبرعات لتعمير القرى التى خربتها الزلازل ، وسافر الثانى إلى المنطقة التى كثرت فيها الزلازل ، تطوعا منه لإسعاف المنكوبين الذين عانوا تلك المأساة القاسية .

لقد ذكرت لكم هذه الوقائع تمثيلا لروح الإنسانية التى تشعر أمريكا أنه لزام عليها أن ينعم بها غير مواطنيها .

وهذه الروح عينها هى التى أوحت إلى القائمين بشؤون الجامعة الأمريكية بالقاهرة وجوب الإتيان بها إلى الوجود . فكل ماتملك أمريكا من مثل عليا ، تريد أن يكون للغير نصيب منها ، ولكنها لاتكره أحدا على قبولها .

وغاية مافى الأمر أنها تضع هذه المثل فى متناول من يريد وتعرضها عرضا يستطيع بوساطته من شاء أن ينتفع بما انتفع به أهل أمريكا من قبل .

فهل فى هذا الرأى من غرابة ؟ ألم ينتفع العالم من قبل بما عم فى مصر من فيض وبركة ؟ وكم أثر فى نفسى ماشاهدت فى قلب مدينة نيويورك من معهد يابانى أنشأته اليابان خصيصا لتحمل إلى أمريكا بوساطته رسالتها وخططها الثقافية ! وبهذا يجرى ذلك التيار الإنسانى بين بلدين ، طالما توافرت المودة وحسن النية بينهما "

ثم انتقل المحاضر من هذه الكلمة التمهيدية إلى التحدث عن المثل العليا الثلاثة التى وجه إليها الأمريكيون أشد عناية ، فقال :

"أولا — تنشئة الفرد : لاتزال توجد فى أمريكا مساحات واسعة من الأرض الصالحة للزراعة لم تزرع ، وثروة معدنية وافرة لم تمس ، ومعين لا ينضب من الزيت لم يكرر ، ولكن الاعتقاد السائد هناك أن هذه كلها لاتعد شيئا إذا قيست بثروة قومية أخرى لم تكشف بعد ، ولم تستثمر ، ألا وهى تلك القوة الدفينة الكامنة فى شخصيات ٤٧ مليون نسمة من شبيبة البلاد ، أبناء المستقبل وبناته .

كثيرا ما أشاهد فى القرى المصرية وأنا أقطع المسافات سفرا بالسيارة أو السكة الحديدية ، ألوف الأطفال من أبناء الفلاحين ، البعض فى ثياب رثة ، والبعض لا يرتدى

غير ثوب واحد فضفاض ، وكثيرا مايلوح لى أن شغل هؤلاء الشاغل هو أن ينظروا إلى جاموسة عن كثب .

وكثيرا ماتحدثت إلى هؤلاء الأطفال فاذا بى ألمح بريقا فى وجوههم ، وشدة ملاحظة فى عيونهم ، وذكاء فى عقولهم ، فضلا عن قدرة على المزاج والنكتة لانقل فيهم عنها فى أحدنا. وكثيرا ماقلت لنفسى : إن أغزر ثروة فى مصر لاتزال كامنة لم تكشف !! .

وليست تلك الثروة حول البحر الأحمر حيث توجد آبار الزيت ، وليست فى مستنقعات الدلتا الملحة حيث لاتزال مساحات واسعة منها تعوزها المصارف ، وليست فى المرافق الصناعية والتجارية التى هى فى دور التكوين على أهميتها .

إنما هذه الثروة الغزيرة التى أشير إليها هى تلك القوة الكامنة فى ذلك الجيش الجرار من البنين والبنات ، عماد الجيل المستقبل البالغ عددهم نحو ستة مليون نسمة . لنستثمر هذه الثروة الدفينة التى لم تتكشف بعد ، تلك الثروة الكامنة فى حياة الفرد ، وبذلك نشيد أساسا لاحدّ لقوته ، نضع دعامة لعظمة قومية لاحدّ لاتساعها ، لنفعل ذلك وكل ما نريد بعد ذلك يأتى تباعا .

هذا هو المبدأ الأول أو المثل الأعلى للتربية الأمريكية : تنشئة الفرد ، على أننى أوجه أنظارهم إلى أن كل نوع من أنواع التربية لايعمل على تنشئة الفرد .

فكثيرا ما يسود فى الجو المدرسى الروح الحربى الذى تتهم به بعض الدول اليوم. فى مثل هذه المدارس لايعترف بالفردية ، بل بالجماعة أو الفرقة . فالفرقة (المدرسية) هى التى تجتمع ، والفرقة هى التى تقف ، وهى التى تنصرف . ما أعظم الفرق بين جو مدرسة كهذه ، وآخر فى مدرسة يحس الطالب فيها بأنه فرد يستمتع بشخصيته ، ويعرف أنه أحمد أو حنا ، اسحاق أو ادوارد ، يوسف أو اسكندر . فلا يشير إليه أحد بأصبع إشارته إلى نكرة قائلا : " قف للتسميع أيها الشاب النابه ، أو اجلس أيها الغبى " .

وتنشئة الفرد تتطلب روح البحث الشخصى . نفهم كمعلمين الصعوبات والأخطار التى تتأتى من إلقاء الأسئلة فى حجرة الدراسة . فهناك الطالب الذى يحتال على المعلم باشكار الأسئلة والتظاهر برغبته فى البحث ، تغطية لعجزه عن إعداد الدرس .

وكثيرا مايستغرق الزمن الأسئلة فلا يكون هناك متسع لإيفاء الدرس حقه ، كما أن الأسئلة كثيرا مانكون من قبيل التحدى للعلم الذى يجب أن تتجاوز معلوماته مادة الكتب المقررة ، وكثيرا مايحاول المعلم أن يستر جهله بعدم منح الفرصة لإلقاء الأسئلة .

من أكثر الأشرطة السينمائية فائدة شريط شاهدته فى نيويورك قبل مغادرتى إياها بشهور قليلة ، عن حياة توماس أديسون . فقد أدهشنا ماطبع عليه أديسون من حب الاستطلاع ، حتى أن الحيران قد خابت آمالهم فى ذلك الفتى الذى كان يحاول على الدوام القيام بأعمال شاذة بعضها من الخطورة بمكان ، والبعض الآخر مثير للعواطف ، وقد فصل من المدرسة وكان أبوه بين الذين أخذوا يعارضونه ، ولم يقف فى صفه سوى أمه وأخته .

قيل إن أديسون سأل مرة أباه سؤالا كعادته فى إلقاء الأسئلة بغير انقطاع ، فأجاب الأب " لا أدرى " فعقب عليه الابن بسؤال آخر قائلا : (ولم لا تدرى ؟). أسلم جدلا بأن السؤال الأخير لايدل على مراعاة الكرامة فى شئ ، إلا أن هذا هو الثمن الذى يجب أن ندفعه إذا ما أطلقنا لتنشئة الفرد العنان " .

وبعد أن تكلم المحاضر عن عطف أمريكا على مبادئ حرية الفكر والعقيدة ، وتخطيها على المبادئ الدكتاتورية التى يستحيل معها الفرد إلى ترس فى دولاب الدولة لايعمل إلا لمصلحتها ولا يفكر إلا بعقلها انتقل إلى النقطة الثانية من مثل التربية الأميركية العليا ألا وهو تربية الشعور الاجتماعى الكافى . فقال :

" يحتمل أن التربية الأميركية منذ عشرين عاما مضت كان ينقصها شيء من التوازن ، حتى أنه كان يطلق عليها اسم " الفردية العنيفة " . لقد ولى ذلك الزمن وأعيد التوازن إلى نصابه . ومن المسلم به اليوم أن الفرد ينبغى أن يعتقد القيام بواجبه نحو المجتمع عامة ، نحو الجماعة المحلية ، ونحو الدولة إن الصورة التى رسمها لنا روسو فى مؤلفه " العقد الاجتماعى " صورة فاسدة ، فقد عزف مسألة الحكم كالآتى :

" الحكم هو ايجاد ذلك النوع من الجماعة ، الذى يستطيع أن يحمى بجميع القوى المشتركة شخص المحكوم ومتاعه ، وفى مقابل ذلك يصبح المحكوم ، رغم اتحاده مع الجماعة ، حرا كما كان قبل اتحاده معها ، لايطيع إلا ذاته " إن تعريف الفردية بكيفية لايطيع الفرد بوساطتها سوى ذاته ، يؤدى حتما إلى هدم المجتمع وتفكيك عرى الأمة . فالتربية إذا ينبغى أن تخلق الشعور الاجتماعى فى الطالب كفرد من الأفراد .

وقد يدهشكم ما وجهت إليه المدارس الاميركية الثانوية عنايتها من تقوية هذا الشعور الاجتماعى . أذكر أن ابنى عند ما التحق بالسنة الأولى بمدرسة ثانوية فى أميركا ، كان ربع الزمن فى تلك السنة مخصصا للمواد الدراسية التى يطلق عليها اسم « التربية الوطنية » على أن الدراسات وحدها لاتكفى بل يجب أن تصحبها مشاهدات عملية خارجية ، وذلك

بدرس أحوال الجماعات . وهذا ماعنى به معهدنا هذا . فدراسة الأحوال الصحية ، وأسباب الفقر ، والمسائل الاقتصادية ، برحلات يقوم بها الطلبة فى القرى والأحياء المنكودة الحظ فى القاهرة ، والمنشآت الخيرية والاصلاحية — كلها تنال ما هى جديرة به من العناية .

دعونى أبين لكم أهميـة هذه المسألة فى التعليم العـام ، فى مصر وأمريكا على السواء . إن مصر كولايات أمريكا المتحدة تستمد مجدها وقوتها من كونها أممية ، مختلطة فى ثقافتها ، مختلطة فى سلالتها . كنت منذ سنوات أخاطب جماعة من السياح فى فندق شبرد ، وفى آخر المحاضرة وجهت إلى سيدة هذا السؤال : "أرجو أن تقول لى يادكتور وطسن من هو المصرى" فأجبتها "أجل ياسيدتى أقول لك ذلك إذا قلت لى من هو الأمريكى" وأخذت أشرح للحاضرين كيف أن مصر وهى فى مفترق الطرق فيما يتعلق بالثقافة العالمية ، والأديان ، والحضارات قد تدفق إلى حياتها العامة ، كثير من مدنيات الأمم الأخرى ، ومع ذلك استطاعت كأميركا أن تكون من هذا شخصية قائمة بذاتها ، وهى ما نسميه اليوم "المصرى" .

وعرج الدكتور وطسن على العناصر والسلالات التى اندمجت فى العنصر المصرى وامتزجت به ، ونوه برأيه فى فائدة اجتماع هذه العناصر فى صعيد واحد ، وربطهم بأواصر الصداقة المشتركة حتى ينتزعوا من نفوسهم كل عداء سلالى أو دينى . ثم انتقل الى المثل الأعلى الثالث فى التربية التى تعيره التربية الاميركية أو فى نصيب من العناية وهو تكوين الخلق . قال :

"من الناس من يعتقد أن وظيفة التربية تتصل بالعقل دون سواه . فهؤلاء يظنون إذن أن المدرسة ليست إلا مكتب استعلامات . وليس الأمر كذلك فى أميركا . هناك تعنى المدرسة بالحياة كاملة ، بالسلوك والمعرفة ، بالخلق والعقل على السواء . أذكر أنى نلت حظوة المثول بين يدى المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول ، وكان من الأقوال التى شدد عليها النبرة فى حديثه ، فكان لها شديد الأثر فى نفسى ، إشارة جلالته إلى المدرسة التى تزعم أنها تربى طلبتها تربية خلقية ، فى الوقت الذى يعلم فيه طلبتها أن معلميها يعيشون عيشة فاسدة . ألم تكن هذه الإشارة مصداقا لقول أمرسون « المأثور أن حقيقة أمرك تنادى بأعلى صوتها ، فلا أستطيع أن أسمع ماذا تقول » .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل عن معنى التربية الخلقية ، إن نظرة سطحية إلى هذا الموضوع تبين لنا أن كثيرا من معاهد التعليم اليوم تستغل هذه المسألة ، وتزعم أنها تربى تلاميذها تربية خلقية ، وهى فى الواقع لا تفعل ذلك . وكل ماتعنى به هذه المدارس هو أن يطيع تلاميذها الأوامر المدرسية التافهة ، وأن يكونوا مؤدبين أمام مدرسيهم ، وأن يهبوا واقفين عند دخول الزائرين فى الحجرة وهكذا . فهل هذا ماترمى إليه التربية الخلقية ؟ كلا . نعم وإن كان لابأس

من العناية بهـذه المسائل ، إلا أن التربية الخلقية تعنى قبل كل شيء بالمبادئ لا بالقوانين المدرسية التافهـة . الأخلاق تعنى بالصدق والأمانة وحفظ العهود ، والعلاقة الشريفة بين الجنسين ، واستعمال الثروة فى وجوهها المشروعة وتأدية الواجب بالأمانة ، والاخلاص للوطن . هذه هى المسائل الخلقية الأساسية التى ينبغى أن يتأهب لها النشء وكل من هـذه المسائل الخلقية التى تحدثنا عنها تحتاج إلى الدرس والايضاح والمناقشة ، الى أن يلم الطالب بالخطأ والصواب ، ثم يوطد العزم على القيام بالصالح من الأعمال . وليس من السهل أن نضع المواد الدراسية اللازمة للتربية الخلقية . ومع اعترافنا بوعورة هذا العمل ، فاننا ندرك أهميته ، فلا غرابة اذا خصصنا لكلية الآداب والعلوم أستاذا يعينه آخرون ، لبث التربية الخلقية .

ولنعلم فوق ذلك أنه من المحـال أن يقتنع طالب بمبدأ خلق (حتى يصبح ذلك المبدأ جزءا منه) ، ما لم نطلق له الحرية التـامة فى مناقشة هذا المبـدأ . فاذا ما وضعنا أمام الطالب مجرد مبادئ خلقية بصفة قاطعة جازمة وحسب ، فإنه قد يستظهرها ويجوز فيهـا امتحانا بنجاح باهر ، ولكنه لن يتخذ منها نبراسا يهتدى به فى حياته اليومية ، ولكن إذا أتيحت له الفرصة لمناقشة هـذه المبادئ ، حتى و إن حاول أن يتحداها ، فإنا نأمل فى هذه الحالة أنه يلج ميدان الحياة مسلحا بتلك المبادئ ، لأنه بهذه الكيفية يكون وثيق العقيـدة بجدارتها ومرونتهـا ، خصوصا إذا كانت دراسة المبادئ الخلقية هـذه تطبق تطبيقا على الوقائع اليومية التى تقع تحت حسه ، ونعيـد ما سبق فأومأنا إليه من أن الدرس والمناقشة وحدهما لا يكفيان لتكوين الخلق ، ما لم يقترنا بالممـارسة والعمل . مثال ذلك أن الطالب الذى يدرب على مبادئ الأمانة فى لعب كرة القدم ، يشب فى الغالب أمينـا إذا ما أصبح موظفا فى بنك مالى ، وقول الصدق فى ساحة اللعب ، تجعل من المتصف بها فى الغالب رجلا من رجال الأعمال ممن تقوم كلمة يتفوه بها مقام حوالة مالية " .

ثم اختتم المحاضر محاضرته بقوله :

" ولم يبق لدى فى الختـام إلا هذه الكلمة الوجيزة . فى هذه المرحلة الخطيرة فى تاريخ الإنسانية ، يصعد دعاؤنا إلى الله تعالى حتى تنتصر هذه المثل العليا ، وهى عظمة الفرد ، والشعور الاجتماعى الإنسانى المطلق الحرية ، والأساس الخلقى القويم للحياة وعلائقها الصالحة إن نفوسنا لتصبو إلى عالم تسود فيه هذه المثل فتصبح حقا لجميع الأفراد والشعوب " .